مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

العدد الواحد والخمسون - مارس 2012

«فيجوتسكي» وعلم النفس السوسيو- تاريخي

غزة عبد الرزاق

استاذ علم النفس،جامعة ابن زهر، اكادير المغرب

لم يحظ عالم النفس الروسي فيجوتسكي (Vygotski) خلال حياته بنفس الشهرة وبنفس الوزن اللذان حظي بهما عالم النفس السويسري جان بياجي، ومن أسباب ذلك أن الصراع بين المعسكر الشيوعي الشرقي والرأسمالي الغربي كان يحول دون وجود تواصل حقيقي بين أقطاب علم النفس في كلا المعسكرين. إلا أنه انطلاقا من الستينيات بدأت حركة ترجمة واسعة مكنت من التعرف على أعمال وأبحاث هذا العالم الكبير، حيث أصبح يضاهي قوة ومكانة بياجي. ولا غرابة في ذلك إذا ما عرفنا بأن فيجوتسكي جعل من وسائل الإنتاج وإعادة الإنتاج الثقافية، المادية منها والرمزية، محور اهتماماته، حيث حاول أن يرصد الآليات التي يتم بواسطتها انتقال «النفس الجمعية» إلى «النفس الفردية».

لقد كانت حياة ليف سيمينوفيتش فيجوتسكي قصيرة، إذ امتدت من سنة 1896 تاريخ ولادته في مدينة غومل إلى سنة 1934 تاريخ وفاته في موسكو. أما مساره في علم النفس فقد كان أقصر، حيث لم يدم إلا حوالي عشر سنوات. ورغما عن ذلك فإن إنجازاته كانت عظيمة، حيث أنتج، وفي ظرف وجيز، إحدى أهم النظريات النفسية وأكثرها معاصرة في القرن العشرين. وكان من حسن أو من سوء طالعه أنها لم تحظ بالاهتمام الذي يليق بمكانتها إلا في الربع الثالث من القرن الماضي، وبالضبط مع بدايات الستينيات، حيث تقلص تأثير المذهبي السلوكي، وحدثت ثورة تقنية وعلمية في ميدان الحاسوب أدت إلى ظهور نماذج معلوماتية تهتم بالنشاط المعرفي الداخلي للإنسان، الذي شكل دائما محور تساؤلات وأفكار فيجوتسكي. لقد وجد العلماء الغربيون في تصوراته، وخصوصا منهم الأمريكيون من أمثال برينر (Bruner) وويرتش (Wertsch)، بديلا للتوجه السلوكي من جهة، ولنظرية بياجي التكوينية من جهة أخرى. ولكي نكون أكثر وضوحا فإن ما أثار الانتباه كونه تقدم بفرضيات ثورية حول علاقة النشاط النفسي، ببنياته وعملياته الباطنية، بالنشاط الاجتماعي والثقافي، المتمثل أساسا في استعمال التقنيات والأدوات الرمزية. إن البنيات والعمليات النفسية بالنسبة إليه ليست

إلا نتاجا ل «استدخال» (Intériorisation) البنيات والعمليات الرمزية والتقنية، وهي تخضع بالتالي لمنطق السيرورة التاريخية. وهذا ما سنحاول فهمه عبر استعراض الأطوار الفكرية التي مر منها فيجوتسكي لكي يبلور نظرية سيكولوجية متكاملة، وعبر تفكيك أبعاد ودلالات المفاهيم المركزية التي ميزت كل طور من هاته الأطوار.

1 . المرحلة التحضيرية : انصب فكر فيجوتسكي في هاته المرحلة على عملية الخلق الأدبي والفني وتوج مجهوداته ب : «تراجيدية هاملیت» سنة 1915، وأطروحته حول «سيكولوجية الفن» سنة 1925. إلا أن هاته الاهتمامات كان وراءها هم سيكولوجي واضح، لكون السؤال المحوري الذي يطرحه فيجوتسكي هو كالتالي: «كيف يقوم العمل الأدبي بتحويل عواطف وأحاسيس المتلقي ؟» أو بعبارة أخرى : «كيف يقوم الإبداع الأدبي بعملية «التواسط» (Mediation) بين الكاتب والمتلقي، فيولد عند هذا الأخير إحساسا جماليا يعيد تنظيم حياته النفسية ؟»

للإجابة على هذا السؤال سوف ينطلق فيجوتسكي من الثنائية الشهيرة التي وضعها «الشكلانيون» (Formalistes) الروس في ميدان النقد الأدبي، ومن بينهم جاكوبسون وبروب، بين الأحداث والأفعال التي تشكل مادة السرد أو ما يسمى « المتن الحكائي » (Diégèse) من جهة، وتنظيم هاته الأفعال والأحداث في شكل محدد أو ما يسمى « المبنى الحكائي» (Narration) من جهة أخرى. وترتكز هاته الثنائية على فرضية أن الأشكال الجمالية (Formes esthétiques) عموما، ومنها الأشكال الأدبية على الخصوص، لا يمكن ردها إلى المحتوى واختزالها فيه، لأنها تولد مفعولها بذاتها، كيف ما كانت طبيعة المحتوى، كشكل تقني يتميز بمنطقه الداخلي. إن الفن من وجهة النظر هاته هو الوسيلة التي تكوّن تجربة الموضوع كموضوع فني، أما الموضوع في حد ذاته فلا أهمية له من هاته الناحية. هكذا سوف يأخذ فيجوتسكي عن الشكلانيين فكرة أنه يجب دراسة العمل الأدبي كمنتوج قائم بذاته، بعيدا عن كل الاعتبارات التي تمس سيكولوجية الكاتب، كما كان يسود في المقاربات النقدية الأدبية الكلاسيكية. إلا أنه يعتبر الفن عموما تقنية اجتماعية لتحويل العواطف، والأحاسيس، وأشكال الوعي عند الملتقين. وبعبارة أخرى، فإن الهيكل البنيوي لكل خطاب يهدف ضمنيا أو صراحة، حسب هاته المقاربة، إلى استثارة ردود فعل القارئ وتوجيهها وجهة معينة، ومن تم فإن ما يهم في الدراسة النقدية للنص الأدبي ليس فقط تفكيك مكوناته الدلالية والصورية وإنما كذلك تحليل أبعاده البرجماتية. ولا شك أن هاته الأطروحة التي يدافع عنها فيجوتسكي تتماشى مع الأفكار الجديدة التي بدأ ينشرها حينئذ أحد أكبر رواد النقد الأدبي في القرن العشرين، ألا هو ميخاييل باختين (Mikhail Bakhtine)، مؤسس النظرية الحوارية (Dialogisme)، حيث تصدى هذا الأخير

للموضوعية المجردة للشكلانيين، ودعا إلى ضرورة الاهتمام بالدوافع الاجتماعية والنفسية لمختلف أجناس الخطاب. وكما تشير إلى ذلك العديد من الأبحاث، ومنها تلك التي قام بها فريديريك فرانسوا (1989، 1999)، فلا جدل أن أعمال فيجوتسكي تحمل بين طياتها أفكارا تترجم تأثره المباشر أو غير المباشر بالمذهب الحواري في النقد الأدبي، ومن ذلك «أن الحوار مع الذات» (Monologue) ليس إلا «استدخالا للحوار مع الآخر» (Dialogue).

في نفس الفترة، أي «المرحلة التحضيرية»، سوف يكتب فيجوتسكي نصا في غاية الأهمية سنة 1925 تحت عنوان: «الوعي باعتباره مشكلة في سيكولوجية التصرف». هذا العمل يشكل نقطة تحول جوهرية في مساره الفكري، حيث يصبح الإشكال السيكولوجي موضوعا مركزيا عوض الإشكال الأدبي، ولو أنه يظل حبيس الإطار «البراديجمائي» (Paradigmatique) للنظرية الإنعاكسية البافلوفية. ويستهله بنقد حاد للمذاهب السيكولوجية التي ميزت عصره، والتي لم تتوان في وضع الوعي جانبا، واختزال علم النفس في دراسة التصرفات الملحوظة. إن هذا الوضع حسبه ناتج عن فلسفة وابستمولوجية «ثنائية» (Dualiste) تعتبر أن ما هو نفسي وما هو فيزيائي شيئان منفصلان. والحقيقة أن الوعي « شكل من أشكال تحول المادة. إن الجسم في هذا المنظور يفكر، وانطلاقا من ذلك فإن الفكر شكل من أشكال الحياة ليس إلا.

بطرحه هذا ينفصل فيجوتسكي عن التراث الديكارتي والكانطي، ويتموقع في السلسلة الجينيالوجية لكل من سبينوزا وماركس. ليس هناك قطيعة بين النفسي والمادي، بين العقلي والواقعي، وإنما هناك تواصل بين الاثنين، تواصل وانفصال، باعتبار أن النفسي ما هو إلا تمظهر، وإن بشكل آخر، لما هو مادي. إن ما هو نفسي، يقول فيجوتسكي، ما هو إلا «استدخال» للعلاقات التاريخية-الاجتماعية. إنه ازدواجية علاقة الأنا مع الأنا وقد نقلت إلى الداخل علاقة الأنا مع الآخر. في هذا الإطار يتبدد التناقض الظاهر بين الوعي والتصرفات الخارجية، لأن الجسم الإنساني حسب هذا التصور الجديد يصبح مصدر الفعل ورد الفعل في الآن ذاته، مصدر المثير والاستجابة. وأصله يكمن في كون العلاقات الدائرية والشرطية تتم داخل الإنسان، وليس بينه وبين ما هو خارجه. إنه بكل اختصار ازدواجية الداخل عوض ازدواجية الخارج.

بعد افتراض الطبيعة الانعاكسية للوعي، تقدم فيجوتسكي لأول مرة بأطروحة جريئة من أجل تفسير الآلية النمائية لتكون هاته الانعكاسية، وهي أن اللغة هي التي تضطلع بمهمة عكس وتنظيم ردود الفعل الداخلية بعد أن كانت تنظم العلاقات الخارجية والبين-نفسية. وقد قال في هذا الصدد : « نعرف أنفسنا لأننا نعرف الآخرين وبنفس الطريقة التي نعرف بها الآخرين، لأن علاقتنا تجاه ذواتنا هي نفسها علاقة الآخرين تجاهنا.

إن الوعي بنحو ما هو صلة اجتماعية مع أنفسنا» (1925/1994، ص. 48).

إن هذا النص يضع مركزا له تيمة أساسية ستصبح تيمة محورية عند فيجوتسكي، وهي أن «العمليات الداخل-نفسية» هي أصلا عمليات «بين-نفسية»، يعني عمليات اجتماعية وتاريخية.

2. المرحلة التاريخية- الثقافية : ويمكن أن نميز فيها بين لحظتين، لحظة التأسيس للمقاربة التاريخية- الثقافية عبر صياغة نظرة أداتية ووسيلية للنشاط النفسي، ولحظة الانكباب على دراسة اللغة بأبعادها المتعددة، البراجماتية، الدلالية، التركيبية والصوتية، من أجل معرفة دورها في نمو وتنظيم الحياة النفسية.

1.2.اللحظة التأسيسية: تعتبر الفترة التي تمتد بين 1927 و 1931 مرحلة حاسمة في مسار فيجوتسكي الفكري والعلمي، حيث سيؤسس فيها نظريا ومنهجيا لمقاربة رائدة في علم النفس، وهي المقاربة التاريخية والثقافية للوظائف النفسية العليا. ففي سنة 1927 سيصدر مؤلفه النقدي الكبير «الدلالة التاريخية للأزمة في علم النفس»(1927/1999)، وسيقوم بعد ذلك بسلسلة متواصلة من الأبحاث على راس مجموعة من الباحثين أطلقت على نفسها اسم «الترويكا» (Troïka)، متوجا هاته الأبحاث بمؤلفه الجامع «تطور الوظائف النفسية العليا»(1931/1978،1992).

تتمثل الأطروحة الأساسية التي يدافع عنها فيجوتسكي خلال هاته الفترة في كون الوظائف النفسية العليا لا تخرج مباشرة من البنيات العصبية، ولا تنتجها التفاعلات الميكانيكية بين هاته البنيات والمثيرات الخارجية كما هو الشأن في النظرية البافلوفية الكلاسيكية. إن هاته الوظائف وظائف اجتماعية وثقافية تتكون وتتبلور عبر التاريخ الفردي والجماعي، في إطار جدلي يتميز بالصراع بين الأشكال البدائية للنشاط النفسي وأشكاله الأكثر تطورا، صراع يؤدي في نهاية المطاف إلى ظهور وظائف نفسية جديدة. وتبعا لهذا المنطق فإن الكائن الإنساني يدخل في تفاعلات مركبة مع موضوعات وكائنات اجتماعية، ويتحتم عليه «إعادة تملك» (Réappropriation) ما أنتجه السلف من «أدوات» مادية ورمزية (اللغة، الخرائط، أشكال العدد والحساب، إلخ...)، حتى يتسنى له القيام بما نسميه « الأنشطة النفسية العليا».

إن جوهر التساؤل في المرحلة الممتدة بين 1927 و 1931 يمكن رصده عبر محورين :

- التصور الثقافي-التاريخي لمسألة النمو.
- ودور الأدوات المادية والرمزية في تكون الوظائف النفسية العليا.

1.1.2.النمو في المنظور الثقافي-التاريخي: لقد كان فيجوتسكي يطمح لتكوين مقاربة «تاريخية-ثقافية» للنفس الإنسانية

تستلهم منهجيتها ومرتكزاتها النظرية من الجدلية الماركسية، وتشكل لعلم النفس ما شكلته «المادية التاريخية» بالنسبة لعلوم الاجتماع و«الرأسمال» بالنسبة للاقتصاد السياسي (سيف، 1989).

لقد كانت تصورات النمو النفسي في عصره، سواء تلك التي نادى بها ستيرن (Stern)، جيزل (Gesell) أو بياجي (Piaget)، تهدف إلى إيجاد قوانين مطابقة لقوانين علم الأجنة. فكما أن الجنين يمر بمراحل من التطور محددة سلفا، انطلاقا من المعلومات الوراثية الموجودة في الخلية الأولية، فإن مراحل نمو الطفل مبرمجة قبليا، ولا تلعب فيها عوامل التجربة إلا دورا ثانويا، دور التعجيل بهذا النمو أو تأخيره. وهكذا يمكننا أن نوجز ركائز هاته التصورات في المسلمات التالية :

1) إن النمو مسلسل داخلي، أي أنه يخضع لعوامل النضج والإيناع (Maturation).

2) إنه نشاط فردي، بحكم خضوعه أساسا لمحددات داخلية.

3) إنه أحادي الوجهة (Unidirectionnel)، لأن غايته وتسلسل مراحله مبرمجان سلفا، ولا يمكن تغييرهما.

4) إنه نمو خطي (Linéaire) ولا يمكن إعادة توجيه مساره.

وسيقلب فيجوتسكي هاته المسلمات على رأسها، مستبدلا إياها بأخرى :

1) إن النمو النفسي حسبه عملية جدلية تتداخل فيها العوامل الداخلية والخارجية.

2) إنه نشاط اجتماعي وثقافي يخضع لمؤثرات التطورات التاريخي.

إن مساراته هي بالتالي متعددة ولا تخضع لبرمجة قبلية.

إن ماهية النمو طبقا لهذا المنظور الجديد هي الصراع بين الأشكال المتطورة من التصرفات التي يدخل الطفل في احتكاك معها والأشكال البدائية التي يتسم بها تصرفه. فالطور الجديد من النمو لا ينبثق من ما هو قبله، وإنما يظهر كنتاج لصراع حقيقي بين الكائن ومحيطه، ولضرورات التكيف النشط مع هذا المحيط. وتبعا لذلك فإن الإمكانيات و القدرات النفسية لا تظهر بطريقة ميكانيكية وانطلاقا من عملية نضج داخلي، أو انطلاقا من تفاعلات تحدث بين الداخل والخارج ، ولكنها نتاج لحركية جدلية تهدف تجاوز التناقضات التي تحدث بين قطبين : القطب الشخصي، الذي يحدده مستوى التحكم في الإمكانيات والمهارات التي كونها الشخص في ميدان من الميادين، والقطب الاجتماعي الذي توجد فيه سلفا أدوات وتقنيات ومهارات راكمتها أجيال تعاقبت عبر الزمن. ويكتب فيجوتسكي في هذا الصدد، مركزا على البعد الثقافي والتاريخي في التصرفات الإنسانية : « إن تصرف الإنسان الراشد والمتحضر هو نتاج لسيرورتين مختلفتين من سيرورات النمو النفسي. فهو من جهة

نتاج لسيرورة التطور البيولوجي الذي أدى إلى ظهور «الهومو سابيينس» (Homo-sapiens)، ومن جهة أخرى نتاج لسيرورة التطور التاريخي الذي أدى إلى تحول الإنسان من كائن بدائي إلى كائن ثقافي. في التاريخ السلفي (Phylogenèse)، تظهر هاتان السيرورتان (سيرورة التطور الثقافي وسيرورة التطور البيولوجي) بشكل منفصل كمسارين مستقلين من مسارات التطور، يشكلان موضوع شعب مختلفة ومستقلة عن علم النفس. إلا أن أصالة وصعوبة مشكلة تطور الوظائف النفسية العليا عند الطفل تكمن في أن هذان المساران يلتقيان خلال النمو الفردي من أجل تشكيل سيرورة واحدة ومركبة» (1992/1931، ص.62).

إن أفصح الأمثلة على هاته الحركية التناقضية، التي تضع وجها لوجه قدرات الفرد البيو-نفسية وما يوفره له المحيط الاجتماعي من أدوات مادية ورمزية، وتؤدي بالتالي إلى إدماج وتركيب وظائف نفسية جديدة، يمكن استقاؤها من تحليل المعطيات المتعلقة بعواقب الاختلالات والإعاقات التي تمس الوظائف النفسية العليا. وهذا ما فعله فيجوتسكي الذي كان يهتم بمواضيع الطفولة المعاقة ومرضى انفصام الشخصية في بدايات مساره المهني، حيث أسس علما جديدا حوالي سنة 1926 سماه «علم الإعاقة» (Défectologie) (يارو شفسكي، 1989، ص.121). لقد وضعته دراسة المعاقين أمام حالة خاصة، فهم تنقصهم وظيفة من الوظائف النفسية (السمع، البصر إلخ...)، ولكن يلزمهم التعامل مع تقنيات وأدوات ثقافية خلقت لأشخاص عاديين. وكمثال على ذلك، فإن الكتابة تتطلب وجود عينين سليمتين لكي تتم عملية القراءة، كما أن السيارة أو الحاسوب يتطلبان تنسيقا مزدوجا بين اليدين والعينين، حيث أن كلا من هاته الأدوات ابتكرت من اجل جسم سليم، الشيء الذي يبين إلى أي مدى تحدد العوامل البيولوجية أشكال الثقافة. وفي هذا المضمار يقول فيجوتسكي: « إن أصل الثقافة الإنسانية يوجد في بعض شروط الاستقرار والاستمرار الخاصة بالإنسان البيولوجي. ولهذا السبب فإن الأدوات والوسائل المادية، والأجهزة والمؤسسات السوسيو-نفسية موجهة لكائن عضوي سليم على المستوى السيكو-فيزيولوجي» (1992/1931، ص.68). ونتيجة لذلك يتوجب بذل جهد ثقافي إضافي، إن على مستوى القيم أو التقنيات، كي تظهر «وسائط» خاصة ومناسبة للأشخاص المعاقين: كتابة «براي» بالنسبة للمكفوفين، لغة الإشارات بالنسبة للأشخاص الذين يعانون من الصمم، إلخ. لما تتوفر هاته الشروط الجديدة فإن الوظائف النفسية التي اندثرت، كالقراءة مثلا، تعاود الظهور من جديد. والحكمة في كل هذا أن «المعنى» يبقى واحدا بالرغم من تحول الوسائط، كما أن الوظائف النفسية تتميز بكونها وظائف تعتمد على التقنيات والأدوات الثقافية، ولا يمكن أن تبلغ مبتغاها إلا بواسطتها.

إن حالة الطفل شبيهة إلى حد ما بحالة

المعاق، حيث أن الطفولة زمن الضعف والقصور وانعدام الأمان، وهاته العوامل تدفع به إلى البحث عن وسائل وتقنيات بديلة، ذات طبيعة اجتماعية وثقافية، تمكنه من تعويض ضعفه وقصوره. إن كلا من الطفل والمعاق يجد نفسه مضطرا إلى الخروج من عزلته قصد استغلال وسائل التعويض التي يوفرها له محيطه، ومن بينها خصوصا الوسائل المادية والرمزية.

2.1.2. دور الأدوات المادية والرمزية في تكون الوظائف النفسية العليا : يشكل المقال الشهير الذي كتبه فيحوتسكي سنة 1930 وسماه «المنهاج الأداتي» (نسبة إلى الأداة) فضاء ستتم فيه بلورة المفاهيم العلمية التي ستمكنه من إعطاء صبغة إجرائية مميزة لنظريته الثقافية-التاريخية. في هذا المقال، سينطلق من أطروحة جوهرية دافع عنها كل من ماركس وانجلز، ومفادها أن الإنسان بخلاف الحيوان يستغني عن العلاقة المباشرة مع الطبيعة وينتج بتعاون مع الآخرين وسائل بقائه البيولوجي، والتي هي عبارة عن أدوات مادية وتقنيات يستعملها كوسائط (Médiateurs) بينه وبينها. إن توظيف هاته الوسائط، وكما ورد خصوصا في كتابي «الإيديولوجية الألمانية» و «أطروحات حول فويرباخ»، هو الذي يميز الإنسان عن باقي الكائنات الحية، حيث تصبح علاقته مع الطبيعة علاقة غير مباشرة. ويمكن تفسير ظاهرة الوعي في إرهاصاته البدائية، وكشكل من أشكال المادة، انطلاقا من هذا التوظيف الجمعي للأدوات والتقنيات المادية قصد التحكم في الطبيعة، طبقا للقانون الذي يقول بأن البنيات الفوقية، ومنها الوعي، ليست إلا انعكاسا لقوى وعلاقات الإنتاج التحتية.

بالارتكاز على هذا المنطق النظري، سوف يقوم فيجوتسكي في المقال السالف ذكره بابتكارمفهوم «الأداة السيكولوجية» (Instrument psychologique). فكما أن هناك «أداة مادية» تتوسط بين الإنسان والطبيعة، فإن هناك كذلك «أدوات نفسية» تتوسط بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان ونفسه. إن الأدوات النفسية وسائل رمزية، تركيبات مندمجة وأنساق متداخلة من بينها «اللغة، أشكال العد والحساب، الوسائل التقنية للتذكر، مؤلفات الفن، الكتابة، الخطاطات، الخرائط (....) وكل العلامات الممكنة.» (1985/1930/، ص.39). وكما أن الأدوات المادية والأجهزة التقنية، تبعا لبنيتها وعناصرها والعلاقات التي توجد بينها، تحدد سلفا مجموعة الأفعال التي نحن مرغمون على القيام بها من أجل استعمالها، والتسلسل الزمني لهاته الأفعال، فإن الأدوات الرمزية وسائل تنظم وتتحكم في علاقاتنا البين- نفسية وحياتنا النفسية. إن الأدوات المادية تحدد بنية الحركات والأفعال، بينما تحدد اللغة، وأشكال العد والحساب، وكل التقنيات الرمزية، بنيتنا النفسية، ومنطق عملياتنا العقلية. وفضلا عن ذلك فإن الأدوات والتقنيات المادية التي تحيط بنا راكمت تجربة وابتكارات أجيال ساحقة، ونفس الشيء ينطبق على الأدوات

الرمزية. وكما أننا، عند قيامنا باستعمال جهاز تقني ما، نباشر عملية «إعادة تملك» (Réappropriation) الأفعال التي قام بها أسلافنا، فإننا عند قيامنا باستعمال الأدوات الرمزية نعيد تملك العمليات والأنشطة النفسية والعقلية التي قاموا بها. وهكذا يتضح أن النفس الفردية ما هي إلا إعادة صياغة للنفس الجمعية، وأن الوظائف العقلية ما هي إلا وظائف اجتماعية، ثقافية وتاريخية.

لقد أكد فيجوتسكي على ذلك مرة أخرى في وثيقة حررها سنة 1930، وأعطاها عنوانا له دلالة فصيحة، ألا هو «الأداة والرمز». لقد شكلت هاته الوثيقة القاعدة التي تمت على أساسها بلورة الفقرات الأربع الأولى من مؤلفه «تطور الوظائف النفسية العليا» (1931/1978). وفيها يركزعلى الجوهر المشترك بين كل من الأداة و العلامة : كلاهما يساهم في تغذية «النشاط المتوسط» (Activité médiatisée). كما أنه ينتقد فيها علماء النفس الذين يقومون بدراسة الرموز والعلامات بشكل مستقل عن الأدوات (1931/1978، ص. 24-23). حتى إذا ما كانت الأدوات واللغة يشتركان معا في إنجاز بعض الأنشطة، يلح فيجوتسكي، فإنه تتم دراستهما كما لو أنهما يمثلان ظاهرتين منفصلتين، في حين أن الذكاء العملي واستعمال العلامات لا يشتغلان بصفة مستقلة عند الطفل، كما أن وحدتهما الجدلية عند الراشد تشكل الجوهر الحقيقي للتصرفات الإنسانية المركبة. إن الاختلافات الأساسية بين الأداة والعلامة، يقر فيجوتسكي، هي أن الأولى «متجهة إلى الخارج»، أي إلى تحويل الأشياء، والثانية «متجهة إلى الداخل»، كوسيلة مركزية لتنظيم الأنشطة النفسية. ويبين في هذا الصدد أن الكلام عند الطفل يسهل عليه الاستعمال اليدوي (Manipulation) الفعلي للأشياء، كما أنه يمكنه من ضبط (Contrôle) النمو (1931/1978، ص. 26)، وهذا الموقف يتوافق مع الأطروحة التي يدافع عنها حول « الأداةالنفسية» في مقاله « المنهاج الأداتي في علم النفس». وهكذا يقول: « إن الأداة النفسية تختلف أساسا عن الأداة التقنية باتجاه فعلها، فالأولى تتجه إلى النفس وإلى التصرف، بينما تتجه الثانية إلى إحداث تحولات في الشيء نفسه، وتشكل في نفس الوقت عنصرا وسيطا بين نشاط الإنسان والشيء الخارجي. إن الأداة السيكولوجية لا تحدث تحولا في الشيء ذاته، وإنما في نفسيتنا (أو في نفسية الآخرين) أو في التصرف. إنها ليست وسيلة للتأثير على الشيء. في الفعل الأداتي يظهر إذن نشاط متعلق بالذات وليس بالشيء» (1931/1978، ص.43).

2.2. اللحظة اللغوية : يشكل كتاب « الفكر واللغة » (1934/1997) اللحظة الأخيرة من المرحلة الثقافية – التارخية، ويعتبر أهم مؤلفات فيجوتسكي العلمية، حيث ينكب فيه بالدرس والتحليل على العديد من الظواهر النفسية، مركزا على العلاقات المركبة التي تنسجها اللغة مع النفس الإنسانية،

وخصوصا مع أهم تجلياتها : الفكر. وكما يقول في صفحة من صفحاته : «إن كل الوظائف النفسية العليا متحدة بخاصية مشتركة، وهي أنها سيرورات وساطية، يعني أنها تضم في بنيتها، كجزء مركزي وهام من السيرورة في مجملها، استعمال العلامة كوسيلة أساسية للتوجيه والتحكم في السيرورات النفسية» (1934/1997، ص.199).

إن مؤلف»الفكر واللغة يمكن تفكيك أبعاده المختلفة عبر الإجابة على ثلاثة أسئلة أساسية :

- كيف يمر الطفل من مرحلة يستعمل فيها اللغة كوسيلة للإشارة إلى وقائع خارجية، داخل سياق تفاعلي مع الآخر، إلى مرحلة أخرى يستعمل فيها اللغة كأداة لبناء المعنى والدلالة، وإن كان وحيدا مع نفسه ؟

- كيف يمر الطفل من مرحلة التحاور مع الآخر إلى مرحلة التحاور مع الذات، حيث يصبح هذا الأخير رمزا للفكر الداخلي في بعده التداولي ؟

- ما هي خصائص الكلام الداخلي وما هي علاقته بالفكر والكلام الخارجي ؟

1.2.2 - من «الوظيفة الإشارية» إلى «الوظيفة الدلالية للغة»:

إن الربط بين «الوظيفة الإشارية»و «الوظيفة الدلالية»للغة له أكثر من معنى، لأنه يفصح عن المرجعية السيميو-منطقية البراجماتية التي كان يتبناها فيجوتسكي بحكم علاقته الوطيدة مع علماء اللغة والدلالة الذين ميزوا عصره، و تكوينه الفلسفي في جامعة «شانيفسكي» الذي مكنه من معرفة الإشكاليات الكبرى التي كان يتجادل حولها فلاسفة المنطق واللغة. ولقد تأثر في هذا الصدد بالتفرقة الأساسية التي وضعها فريج (Frege) بين «الوظيفة الإشارية» (Indicative) أو «المرجعية» (Référentielle) للغة و»الوظيفة الدلالية» (Significative)، معتبرا مسالة «المرجع» مسألة محورية في فلسفة المنطق واللغة. وانطلاقا من هنا يصبح «الفعل اللغوي» ذا وظيفة «تكوينية»و»مكونة»، ويصبح الفكر ذا طبيعة «رمزية» في حد ذاته وجوهره.

وفي هذا الصدد لا يمكن استيعاب الأطروحات التي يتقدم بها في الفقرة السابعة من كتابه «الفكر واللغة» إلا انطلاقا من هاته المقدمات النظرية، حيث ترتكز هاته الأطروحات على «الكلمة» (Mot) كوحدة للتحليل، وليس على «العلامة» (Signe) بالمعنى السوسيري. إن الكلمة في هذا الإطار وحدة منطوقة داخل سياق تواصلي حي يجمع بين متخاطبين، وليست وحدة تتميز بتعارضها مع وحدات أخرى تنتمي إلى نسق لغوي معين. وهكذا فإن معناها يتحدد انطلاقا من «مقاصد» (Intentions) «المتكلمين» (Interlocuteurs)، حيث تصبح بؤرة للعلاقات الجدلية القائمة بين ثلاثة أقطاب :

- قطب المتكلمين الذين يدخلون في

إن فيجوتسكي يستعمل غالبا كلمة «الدلالة» (Signification) من أجل الإشارة إلى الشق الأول، وكلمة «المعنى» (Sens) من أجل الإشارة إلى الشق الثاني. ويقول برنار شنولي في هذا الصدد بأن « المعنى يحيل عنده إلى مجموعة الوقائع السيكولوجية التي تستثيرها الكلمة في الوعي، أما الدلالة فهي ليست إلا مجالا من المجالات التابثة للمعنى، والمتسمة بالوحدة والوضوح» (1989، ص. 25).

2.2.2. من «اللغة الأنا- متمركزة» إلى «اللغة الداخلية» : إن أهمية المعنى والدلالة فيجوتسكي كوسائط سيكولوجية بين الفكر الداخلي والعالم الاجتماعي تظهر بوضوح في التحليلات التي يقوم بها حول السيرورة النمائية للغة. وله في هذا الموضوع سجال كبير مع مؤسس علم النفس التكويني جان بياجي. لقد لاحظ هذا الأخير في كتابه « اللغة والفكر عند الطفل» (1923/1976) بأن الصغار من سن 3 إلى 6 أعوام، أي الصغار الذين يوجدون في المرحلة الما قبل- إجرائية (Préopératoire)، لهم ميل قوي إلى الممارسة الجماعية للحوار الشخصي، حيث يحدث كل طفل نفسه دون أن ينصت حقا إلى الآخرين. وهذا التمركز حول الأنا لا يوجد فقط في السلوكات اللغوية، وإنما يمتد أيضا إلى أنشطة أخرى كاللعب، حيث يشارك الأطفال بعضهم البعض في أعمال جماعية ولكن كل واحد منهم يطبق قواعده الفردية. أما في «مرحلة العمليات الملموسة» (Opérations concrètes) فإن الطفل يصبح قادرا على ممارسة حوار جماعي حقيقي، حيث يأخذ بعين الاعتبار رأيه ورأي الآخر وينسق بينهما، وهذا التنسيق يسري كذلك على أنشطته الأخرى، كاللعب مثلا، حيث يقتسم مع الآخرين نفس قواعد اللعبة التي هم بصدد ممارستها.

وانطلاقا من هاته الملاحظات استنتج بياجي أن تمركز الطفل حول الأنا في منولوجاته الجماعية له أساس ذهني. ففي المرحلة الما قبل- إجرائية لا يستطيع الطفل التموقع فكريا إزاء مجموع الأشياء، وكذلك إزاء مجموع الأشخاص، وهذا ينعكس على خصائص ممارسته اللغوية. أما في مرحلة الإجراءات الملموسة (حوالي 7-8 سنوات)، فإنه يصبح قادرا على تحقيق تنسيق بين «العمليات المباشرة» (Opérations directes) و«العمليات العكسية» (Opérations inverses)، تنسيق يؤسس قابلية الإجراءات «للإعتكاس» (Réversibilité)، أي قابلية فعل ما لكي يسير على المستوى التمثلي من النقطة «أ» إلى النقطة «ب»، وعكس ذلك من النقطة «ب» إلى النقطة «أ». إن هذا التنسيق على المستوى الذهني هو الذي يمكن الطفل حسبه من القيام بتنسيقات مماثلة على المستوى اللغوي والاجتماعي. والتنسيق في الحوار بالنسبة إليه ما هو إلا انعكاس لقدرة الطفل على التنسيق الذهني، الذي يشكل بدوره امتدادا لعمليات تنسيق بيولوجية.

إن فك الارتباط المباشر للمعنى مع السياق الزمكاني، المادي والعملي، يواكبه تغيير كبير في مجرى النمو، حيث تنتقل الأنشطة والتفاعلات الاجتماعية والنفسية من المستوى البين- فردي إلى المستوى الفردي، ويتحول التواصل مع الآخر إلى تواصل مع الذات. وهذا ما يتزامن مع استعمال الدلالة أو المعنى كوسائط سيكولوجية تمكن من تحقق الفكر كواقعة لغوية، ومن بلورته كواقعة داخلية. و يشرح لنا فيجوتسكي هاته العلاقة التي ينسجها الفكر مع الدلالة (Signification) قائلا : « إن دلالة الكلمة هي في نفس الوقت ظاهرة لغوية وظاهرة فكرية. إلا أن هذا لا يعني انتماء خارجيا محضا إلى مجالين مختلفين من الحياة النفسية. إن دلالة الكلمة ظاهرة فكر بالقدر فقط الذي يرتبط فيه الفكر بالكلمة ويتجسد فيها – وبالعكس من ذلك فإنها ظاهرة لغة بالقدر فقد الذي ترتبط فيه اللغة بالفكر وتكون مضاءة (Eclairée) من طرفه» (1997/1934، ص .430). هناك إذن علاقة جدلية بين دلالة الكلمة (والمقصود هنا الدلالة التي توجد في المعجم) والفكر، حيث أن الدلالة تفرض قالبها العرفي، المتوارث اجتماعيا وتاريخيا، والفكر يفرض معانيه الفردية المتحولة والمتجددة. وفي هذا الصدد يقول العالم الروسي في صفحة أخرى من صفحات كتابه : « إن الفكرة لا تتطابق أبدا مع الدلالة الحرفية للكلمات. إن وظيفة الدلالة هي التواسط ((Médiation بين الفكرة والتعبير اللغوي، وهذا يعني أن الطريق التي تنطلق من الفكر لتصل إلى الكلام غير مباشرة، وتخضع لعملية تواسط داخلي» (1997/1934، ص. 493). ويتابع تحليله واضعا فرقا أساسيا بين الدلالات الحرفية التي توجد في المعجم، والدلالات الأخرى التي تكتسبها الكلمات حسب سياقات استعمالها المختلفة والمتعددة، معتبرا الدلالات الأولى وسائل تواسط خارجية والدلالات الأخيرة وسائل تواسط داخلية، ومن أجل دعم أطروحته يستند إلى اللغويين الروس الكبار بوليانوف (Polianov) وجاكوبنسكي (Jakubinski) قائلا : « في العمق، كل ما نقوله يتطلب مستمعا يفهم كل ما نريد أن نقوله. لو أن كل ما نريد أن نقوله يرتبط فقط بالدلالات الصورية للكلمات التي نستعملها، لتطلب منا ذلك كلمات أكثر بالكثير من تلك التي نستعملها في الواقع من أجل التعبير عن كل فكرة. لما نتكلم فإننا نكتفي بالإحالات الضرورية» (1997/1934، ص. 466).

هناك إذن شقان في تعريف فيجوتسكي للدلالة :

– الدلالة كعنصر وسيط خارجي، عرفي واجتماعي، للعمليات الفكرية. إنها «الدلالة المعجمية» (Lexicale)، أو «الدلالة الحرفية» (Littérale).

– والدلالة كعنصر وسيط داخلي، فردي ونفسي، للعمليات الفكرية. إنها الدلالة في أبعادها السياقية، وفي تلوناتها الذاتية، وفي تحولاتها المتعددة.

3.2.2. خصائص اللغة الداخلية :

إن اللغة الداخلية ليست موضوعا يمكن ملاحظته بشكل مباشر، ولكن فيجوتسكي يستنتج خصائصها انطلاقا من دراسة اللغة الأنا- متمركزة. وهي تتميز حسبه عن اللغة الشفهية على ثلاثة مستويات: المستوى التركيبي، المستوى الدلالي والمستوى الصوتي. فعلى المستوى «التركيبي» (Syntaxique) تتميز اللغة الداخلية عن الشفهية ببساطة قصوى ، حيث تكتفي ببنية «حملية» (Prédicative) محضة للقضايا (Propositions)، يسيطر فيها «المحمول» (Prédicat) على «الحامل». والسبب في ذلك أننا في اللغة الداخلية لا نحتاج إلى تسمية الشيء الذي نفكر فيه، وإنما نقتصر على الانتباه إلى ما يمكننا قوله حوله. و هذا ما يفسر الطابع المتناثر والمتقطع للغة الأنا- متمركزة، حين تبتعد أكثر فأكثر عن اللغة الاجتماعية لتصبح لغة داخلية تنحو بنيتها منحى يلائم الطابع «المتكتل» (Condensé) للفكر.

أما على المستوى «الدلالي» (Sémantique) فتتميز اللغة الداخلية عن اللغة الشفهية بهيمنة «المعنى» (Sens) على «الدلالة» (Signification). إن المعنى في هذا السياق يمثل مجموعة الوقائع السيكولوجية التي تحدثها الكلمة في الوعي، أما الدلالة فليست إلا مجالا من مجالات المعنى الذي تكتسبه الكلمة في سياق تواصلي محدد على مستوى الزمان والمكان، ولكنه مجال يتميز بالثبات، والوحدة والوضوح (1997/1934، ص. 480). ويقول فيجوتسكي في هذا الصدد، مركزا على دينامية وذاتية المعنى من جهة، وعلى صورية وتداولية الدلالة من جهة أخرى : « إن كل كلمة يتم استعمالها في اللغة الداخلية تأخذ شيئا فشيئا ألوانا أخرى، وتفاصيل أخرى من المعنى، التي تنمو وتنضاف إلى بعضها البعض، لتتحول في النهاية إلى دلالة جديدة للكلمة» (1997/1934، ص. 486-487). وهذا يعني أن وظيفة اللغة الداخلية هي الخلق المتجدد للمعنى، خلق يشكل جوهر نشاط الفكر ويطرح أسئلة كبرى حول الأسباب الحيوية التي تكمن وراء هاته الحركية التي يمتاز بها.

وفي الأخير، ومن الناحية «الصوتية» (Phonétique)، فإنه يمكن القول بأن اللغة الداخلية تتميز عن اللغة الشفهية بثانوية الصوت، حيث يتقلص دوره إلى حد أنه يصبح شبه منعدم. وهذا ما يفسر، إلى جانب بنيتها الحملية (البعد التركيبي)، «الطابع المقتضب» (Abrégé) للغة الداخلية.

إن اللغة الداخلية بالنسبة هي حلقة وصل بين الفكر، الذي تكمن وراءه دوافع حيوية، واللغة المنطوقة كمؤسسة اجتماعية خارجية. لكن ما هي طبيعة هذا الفكر الذي يزرع الحياة في هاته اللغة ؟ ما هو كنهه وجوهره ؟ وما هي طبيعة الدوافع التي تفسر حركيته ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في المحور التالي، عبر رصد الأبعاد المتعددة لجدلية الفكر واللغة.

إن «الحديث مع الذات» (Propos pour soi) بالنسبة لبياجي هو من بقايا «الفكر اللاجتماعي» (Pensée asociale) الذي يميز بدايات الطفولة، أو ما كان يسميه «الانطوائية المعرفية» (Autisme cognitif). أما فيجوتسكي فسوف يعتبرالحديث مع الذات مقدمة لظهور «التفكير العقلي»، ويدل على أن الإنسان بصدد الانتقال من الوظائف البين- نفسية إلى الوظائف الداخل- نفسية، أي من أشكال النشاط الاجتماعي والجمعي إلى أشكال النشاط الفردي (1997/1934، ص. 446). ويقول رباردبل (1999، ص. 254) في هذا المضمار : « إن فيجوتسكي يعبر عن أطروحة مفادها أن اللغة الأنا- متمركزة لغة داخلية من حيث وظائفها ولغة مستخرجة (Extériorisée) من حيث بنيتها. وطبقا لهاته الأطروحة فإنه سوف يفسر تحولات بنية اللغة الأنا- متمركزة موازاة مع نمو وظائفها الفردية. إن اللغة، وهي تضطلع بمهام جديدة، تتحول في بنيتها تبعا لوظائفها الجديدة. في البداية، لا تختلف اللغة الأنا- متمركزة عن اللغة الاجتماعية إلا من الناحية الوظيفية. ولكن، شيئا فشيئا، مع تقدم الاختلاف الوظيفي، تتحول بنيتها كذلك، لتصل في النهاية إلى التجرد من البنية التركيبية (Syntaxique) للغة الشفهية. فكلما أبانت اللغة الأنا- متمركزة عن نفسها، كما هي في دلا لتها الوظيفية، كلما كانت خصائصها التركيبية- التبسيط والطابع الحملي (Prédicatif)- بارزة».

وبشكل أدق فاللغة الأنا- متمركزة لا تتميز في أي شيء عن اللغة الاجتماعية لما يكون الطفل في عامه الثالث. ولكنهما تختلفان في جل الخصائص البنيوية والوظيفية عندما يصل إلى سن السابعة. وهذا المعطى يبين أن هناك تفريقا تدريجيا بين «اللغة من أجل الآخر» (Pour autrui) و«اللغة من أجل الذات» (Pour soi).

لقد تصدى فيجوتسكي لأطروحات بياجي انطلاقا من معطيات تجريبية راكمها منذ سنة 1926 بمعية لوريا (Luria) ولخصها في الفقرة الثانية من كتابه «الفكر واللغة». لاحظ هذان العالمان بأن نسبة «الحديث مع الذات» تتضاعف، من 1 إلى 2، لما يوجد الطفل أمام مشكلات يستعصي حلها. هناك مثلا هذا الطفل الذي يبحث عن قلم ذي لون محدد من أجل إكمال رسمه ويتحدث قائلا : « أين هو القلم ؟ أريد قلما أزرق، لا أعثر عليه، ولكن لا بأس، سأرسم بواسطة قلم أحمر وأبلل بالماء. سيصبح داكنا كما لو أنه أزرق...»..إن الطفل يجهر هنا بعمليات التفكير التي يمارسها الراشد بشكل داخلي، وهذا الحديث مع الذات له وظيفة «تخطيط» (Planification) و«تحكم» (Régulation) في أفعاله، بهدف حل وضعية- مشكلة (Situation- problème). لكن، إذا كانت اللغة الأنا- متمركزة حلقة وصل تحول اللغة الاجتماعية إلى اللغة الداخلية، فما هي الخصائص التي تميز هاته الأخيرة ؟

متعارف عليها في المعجم، لا تتوفر إلا على دلالة واحدة، وهاته الدلالة ليست إلا إمكانية تتحقق في الكلام الحي، حيث تشكل حجرة أساس من بين حجرات أخرى في تكون «المعنى» (Sens). إلا أن معنى كلمة ما يمثل مجموع الوقائع السيكولوجية التي تولدها في الوعي، وهي مركب دينامي وحيوي يتبدل في سياق التخاطب بينما تبقى الدلالة إحدى المناطق الأكثر ثباتا في بنائه. وهاته الجدلية بين الدلالة المعجمية والمعنى، التي تؤدي منطقيا إلى التفاوض التخاطبي والبين-فردي حول الدلالات الحقيقية التي يجب إعطاؤها للكلمات والمفاهيم، هي التي تشكل مظهرا من مظاهر الفكر الفاعلة والفعلية.

خلاصة

تشكل نظرية فيجوتسكي لحظة ثورية في علم النفس، بحكم أنها ابتكرت مفاهيم جديدة تمكن من رصد آليات انتقال أنواع النشاط الجمعي إلى وظائف نفسية وفردية، ولقد مكنت تحاليلنا من التعرف على أهم السمات التي طبعت مختلف المراحل والأطوار التي مر منها فكر هذا العالم الروسي الكبير. إن فيجوتسكي يؤسس نظريا وتجريبيا مقاربة جديدة في علم النفس عماد بنيانها فرضية مفادها أن النفس الإنسانية، في شقها المتعلق بالوظائف العليا (التفكير، التذكر، العد والحساب، إلخ...)، ما هي إلا «استدخال» (Intériorisation) للعلاقات الاجتماعية والتاريخية. و سيركز في آخر حياته على العلاقات المتشعبة والجدلية بين الفكر واللغة، وفي هذا السياق ستصبح «الدلالة» (Signification) مفهوما محوريا في النظرية التاريخية-الثقافية، وجوهر التوحيد بين الوظائف النفسية العليا.

المراجع :

- Deleau. M.(1989). «Actualité de la notion de médiation sémiotique de la vie mentale ». Enfance. tome 42. n° 1-2. p.31-38.

- François. F. (1998). Le discours et ses entours. L'Harmattan. Paris.

- François. F. (1999). «Mot et dialogue chez Vygotski et Bakhtine ». in y. clot (sous la direction de). Avec Vygotski. La Dispute. Paris. p. 189-206.

- Marx. K. (1846/1984). «Thèses sur Feuerbach ». in K.Marx. F.Engels. Etudes philosophiques. Edition sociales. Paris.

- Marx. K. Engels. F. (1846/1976). L'Idéologie Allemande. Editions sociales. Paris.

- Piaget. J. (1923/1976). «Le langage et la pensée chez l'enfant ». Delachaux et Niestlé. Neuchâtel. Paris.

- Rabardel. P. (1999). «le langage comme instrument ? Eléments pour une théorie instrumentale étendue ». in y. clot (sous la direction de). Avec Vygotski. La Dispute. Paris. p. 241-265.

- Schneuwly. B. Bronckart. J.P

4.2.2. جدلية الفكر واللغة: بالنسبة لفيجوتسكي لا يمكن دراسة الفكر بمعزل عن اللغة، لأن هاته الأخيرة هي التي تجعله ينمو ويتحقق، وينتقل من المستوى الضمني إلى المستوى الصريح، ومن طور الإمكان إلى طور الحدوث الفعلي. وفي هذا الصدد يقول: « إن حركة الفكر في حد ذاتها وهي تنتقل من الفكرة إلى الكلمة عبارة عن عملية نمو. إن الفكر لا يعبر عن نفسه في الكلمة وإنما بتحقق في الكلمة» (1997/1934، ص. 428). هكذا يظهر إذن أن اللغة حسبه ليست انعكاسا للفكر وإنما أداة لتحقيقه، أي لانتقاله من المستوى الذاتي والفردي إلى المستوى الموضوعي والاجتماعي، حيث يصبح موضوعا للتداول والتحاور. هذا يعني أن الفكر ليس قابلا للتداول «في حد ذاته»، لأنه عبارة عن تمثلات كلية متصلة ومتزامنة مع بعضها البعض، ولا يمكن لهذا السبب أن تلج الحلقة التواصلية إلا إذا تم استعمال كلمات اللغة التي تتميز بصفات الخطية (Linéarité) والتتالي في الزمن (Successivité). وهذا ما يعبر عنه «فيجوتسكي» حينما يشبه الفكر « بسحابة ثقيلة تسكب مطرا من الكلمات تحت تأثير رياح عاتية، أي تحت تأثير العواطف والنشاط الحيوي الذي يهدف إلى تأمين البقاء الإنساني» (1997/1934، ص. 494).

وهنا يجب الوقوف عند أطروحة جوهرية، تجعل من فكر فيجوتسكي فكرا أصيلا بمعنى الكلمة، يضرب الثنائية في عمقها، وهي أن الفكر مرتبط بالحياة، وبمنطق جدلية المتناقضات الذي يميزها. وفي هذا السياق يلاحظ : «إن العيب الأساسي في السيكولوجية التقليدية هو فصلهما (الفكر والوجدان). يتحول الفكر في هاته الحالة بالضرورة إلى تيار مستقل من الأفكار التي تفكر في نفسها، منقطعة عن زخم الحياة الواقعية، عن الدوافع، والمصالح، والأهواء الحقيقية للإنسان الذي يفكر» (1997/1934، ص. 61).

يمكن إذن تلخيص سيرورة الفكر حسب فيجوتسكي عبر المراحل لتالي :

- هناك أولا «الدافع» (Motif)، أي الأساس «البيولوجي- العاطفي» الذي يولد الفكرة، حيث أن هاته الأخيرة لا يمكن أن تظهر ابتغاء لمعرفة تجريدية ومجردة، ولكن لأنها تشكل رهانا حيويا بالنسبة للشخص الذي ينتجها.

- وهناك ثانيا عملية بلورة الفكرة بواسطة «الكلام الداخلي»، أي عن طريق التحاور مع الذات، هذا الآخر الذي استدخلناه في أنفسنا فأصبح مكونا وظيفيا لحياتنا النفسية.

- وفي الأخير يتم تحقق الفكر بولوجه مرحلة التداول بواسطة «الكلمات المنطوقة» (Mots énoncés) التي نتبادلها في تفاعلاتنا التخاطبية، حيث يتم التفاوض حول «الدلالات الحقيقية» للكلمات انطلاقا من تمازج جدلي بين «الدلالات اللغوية» و«المعاني».

إن الكلمة حسب فيجوتسكي، كما هو

- Vygotski. L.S. (1929/1979). «The Development of Higher forms of attention ». in J.W .Wertsch (sous la direction de). The concept of activity in Soviet Psychology. Sharpe. Armonk. N.Y.. p.192-240.

- Vygotski. L.S. (1930/1985). «La méthode instrumentale en psychologie ». in Schneuwly. B.. Bronckart. J.-P. (1985). p. 19-48.

- Vygotski. L.S. (1931/1978). Mind in Society. the Development of Higher Psychological Process. edition M. Cole et al.. Harvard University Press. Cambridgem. Mass

- Vygotski. L.S. . (1931/1992). Histoire du développement des fonctions psychiques supérieures. inédit. chapitre 1 traduit par P. Vereecke et R. Hotterbeex. Ecole de traducteurs interprètes. Université de Mons. Belgique.

- Vygotski. L.S. (1934/1997). «Pensée et langage. trad. F. Sève. 3e édition. La Dispute. Paris.

(1985). (sous la direction de). Vygotski aujourd'hui. Delachaux et Niestlé. Neuchâtel.

- Schneuwly. B. (1989). «Le 7ème chapitre de pensée et langage de Vygotski : esquisse d'un modèle psychologique de production langagière». Enfance. tome 42. n°1-2. p.23-30.

- Schneuwly. B. (1999). «Le développement du concept de développement chez Vygotski». in y. clot (sous la direction de). Avec Vygotski. La Dispute. Paris. p. 267-280.

- Sève. L. (1989). «Dialectique et psychologie chez Vygotski ». Enfance. tome 42. n°1-2. p. 11-16.

- Vygotski. L.S. (1925/1994). «La conscience comme problème de la psychologie du comportement ». Société française. n° 50. avril-juin. p. 35-49.

- Vygotski. L.S. (1927/1999). La Signification historique de la crise en psychologie. Delachaux et Niesté. Paris. Lausanne.